المقتطف

الجزء العاشر من المجلد الثالث والثلاثين

١١ اكتوبر (تشرين الاول) سنة ١٩٠٨ — الموافق ٦ رمضان سنة ١٣٢٦

سكة الحجاز

لقينا بالامس ضابطاً من ضباط الجيش العثماني الذين اقاموا في اليمن سنين كثيرة فوصف لنا تلك البلاد وصفاً اقرب الى تخيُّلات الشعراء منهُ الى حقائق العلماء . ويظهر من اقوال الثقات الذين طافوا في جزيرة العرب من حدود اليمن وحضرموت جنوباً الى حدود مكة شمالاً بعيدين عن الساحل الغربي ان وصفهُ صحيح لا مبالغة فيهِ وان البلاد تشبه لبنان وسويسرا جبال مرتفعة تجتلب الغيث من السحاب . وسهول منبسطة تكسوها الرياض والغياض باثواب قشاب . واودية منخفضة تجري في قلبها الغدران وتكتنفها الروابي والهضاب

جزيرة العرب اوسع بلدان الدولة العثمانية مساحتها مليون ميل مربع وقد يظن الاول وهلة انها كلها صحارٍ وقفار وجبال صخرية قاحلة كما يراها من يدخلها من ساحل البحر ولكن الذين تيسَّر لهم اختراقها والبحث فيها من اهل العلم والسياحة يقولون ان ثلثها صحارٍ لا تسكن وثلثاها اراضٍ زراعية خصيبة لا تعوزها الاَّ ايادي العمَّال ولكن القفار تحيط بها فيتوهَّم من يراها ولا يتخطاها ان البلاد كلها مثلها . ولقد احسن القس زويمر حيث قال ان بلاد العرب مثل سكانها ظاهرها عبوس كالح وقلبها ملؤهُ الكرم والبشاشة

فمن نجد الى اليمن وعمان جبال مرتفعة علوها نحو ٣٠٠٠ قدم عن سطح البحر ثم تصعد رويداً رويداً حتى يبلغ ارتفاعها عشرة آلاف قدم فتكون مثل اعلى جبال لبنان . والحر شديد في سهولها واوديتها ولكن الرطوبة قليلة الاَّ في سواحلها البحرية ولذلك يكون حرُّها محتملاً واما في جبال اليمن وعمان فلا تزيد الحرارة فيها في شهر يوليو على ٨٠ او ٨٥ بميزان فارنهيت فهي مثل بلاد الشام من هذا القبيل وابرد من القطر المصري . و بتكوُّن الصقيع في صنعاء

ثلاثة اشهر من السنة و يغطي الثلج جبل قُبَيْل في فصل الشتاء كلهِ ويشتد البرد شتاءً فيهِ وفي كل الجانب الشمالي من بلاد العرب . والهواء في نجد طيب منعش للابدان

وقال السر وليم موير في وصف الطائف " بلاد خصيبة جميلة . عمران في كل مكان تتجدَّر من الآكام . وسهول لابسة حلَّة سندسيَّة ومحلاة بقلائد الاشجار وظلها الوارف . والطائف مشهورة بفاكهتها عنبها كبير الحب لذيذ الطعم واثاوها مختلفة الانواع والاشكال . الخوخ والرمان واللوز والتفاح والمشمش والتين والسفرجل كلها كثيرة جدًّا و بالغة اقصى درجات الكمال في نموها وطيب طعمها "

وليس في بلاد العرب انهار كبيرة ولكن الامطار التي تقع فيها ولا تجري في غدرانها تغور في ارضها وتظهر ثانية عيوناً متدفقة في الجهات الشرقية منها في الاحساء والبحرين . وتكثر السيول في اليمن وفي كل اودية بلاد العرب . بلاد مثل هذه يحيط بها البحر من ثلاث جهات بين الهند ومصر والشام على ابواب اوربا وقد سماها الرومان بالعربية السعيدة لكثرة خيرها وميرها مرَّت عليها القرون وهي تزيد انحطاطاً قرناً بعد قرن وعاماً بعد آخر حتى في الزمن الذي ارتفع عملها على الجانب الاكبر من المعمورة كانت تستورد الطعام من مصر والشام والاَّ مات اهلها جوعاً والى الآن لا معيشة لاهل عاصمتيها الاَّ من الحجاج

ليقل المفسِّرون ما شاؤوا في تفسير ذلك فانهُ لا يغيِّر حالة البلاد الحاضرة وهي ان خيرها كثير ولكن لا ينتفع بهِ اهلها ولا غيرهم . ولم يكن اهلها كذلك من قديم الزمان لانهم اهل تجارة وكان لهم ملك واسع وانفة شهاء حتى اخجزوا الروم والفرس وكان المصريون قبل ذلك ينظرون اليهم بعين المهابة والوقار ويحسبون بلادهم منبع الخيرات وجنَّة الخلد

اشرنا الى الماضي البعيد لنسترشد بهِ الى المستقبل اما ما بينهُ وبين الزمن الحاضر فاننا نودُّ ان نساهُ ولا نذكر منهُ الاَّ حسنة واحدة فتحت باب المستقبل الذي نتمنى ان يعيد الى البلاد عزها الاسبق . وهذه الحسنة هي سكة الحديد التي فُتحت رسميًّا في اول الشهر الماضي

شرعت الحكومة العثمانيَّة في انشاء هذه السكة من الشام الى الحجاز سنة ١٩٠٠ ففي شهر ابريل من تلك السنة اعرب جلالة السلطان عن رغبتهِ في انشائها ودعا المسلمين في كل اقطار الارض الى الاشتراك في هذا العمل الجليل بالتبرع بالمال واكتتب هو بخمسين الف ليرة عثمانيَّة فلبَّى المحسنون طلبهُ من كل اقطار المسكونة وابتدأ العمل في ٣١ اغسطس من تلك السنة وهو عيد الجلوس الخامس والعشرون . ولقد سار العمل من دمشق الى المدينة سيرًا حثيثاً على غاية الانتظام

فبين دمشق ومعان ٤٥٩ كيلومترًا ومحطات كثيرة . ومعان امام خرائب البتراء المدينة القديمة التي كانت عاصمة مملكة الانباط . وقد ظهرت فوائد هذه السكة في كل تلك البلاد مع قرب العهد بها فزادت عمارتها وانشئت فيها القرى ونشطت الزراعة من عقالها. والبلاد كلها من اخصب البلدان وقد كانت تموّن الالوف والملايين في غابر الزمان . واصبحت معان بلدة كبيرة انشئت فيها ورشة لاصلاح القاطرات والمركبات ومخازن للبضائع وفندق للسيّاح وهي مرتفعة عن سطح البحر ١٠٧٤ مترًا فتضاهي مصايف لبنان في ارتفاعها ويقال ان هواءها جاف جدًّا وانهُ ابرد من هواء حلوان واجف فهي مصحّة للابدان من اجود المصاح

والسكة بين دمشق ومعان تكاد تكون في مستوىً واحد . وتهبط بعد معان قليلاً ثم تصعد الى علو ١١٥٢ مترًا فوق سطح البحر عند محطة عقبة الحجاز وهي امام خليج العقبة والمسافة منهُ اليها نحو ٩٠ كيلومترًا ومن السويس الى خليج العقبة ٢٦٠ كيلومترًا فالمسافة كلها اقل من ٣٥٠ كيلومترًا ومن السويس الى معان اقل من ٣٢٠ كيلومترًا فلو انشئت سكة حديديّة من السويس الى معان او الى عقبة الحجاز لما زادت نفقات انشائها على مليون جنيه

والبلاد بعد عقبة الحجاز قفار تنحدر رويدًا رويدًا الى ان تصل الى تبوك حيث الارتفاع عن سطح البحر ٧٧٥ مترًا والبعد عن دمشق ٦٩٢ كيلومترًا وهناك محطة كبيرة ومستشفى وورشة لتصليح الآلات ثم ترتفع الارض بعد ذلك رويدًا رويدًا حتى يبلغ ارتفاعها عن سطح البحر ١١٠٣ امتار عند الدار الحمراء و ١١٥١ مترًا عند المطلع ثم تهبط باسرع مما صعدت وعند المطلع مفرق السيول بين وادي عطيل ووادي حمض

وستكون مدائن صالح او العلا المستودع الكبير قبل الوصول الى المدينة المنورة وذلك يتوقف على الماء فاذا وجد ماء كاف في مدائن صالح اختيرت على العلا

ولهذه السكة مبدأ آخر من مدينة حيفا على شاطيء بحر الروم الى درعا كما ترى في الخريطة التي في صدر هذا المقالة . وطول السكة كلها من دمشق الى المدينة المنوّرة ١٣٠٠ كيلومتر وكيلو مترات وقد بلغت نفقات انشائها ثلاثة ملايين من الجنيهات وحينما يتم انشاؤها الى مكة المكرمة يصير طولها ١٧٥٢ كيلو مترًا والى جدة يصير طولها ١٨٢٠ كيلو مترًا ومن حيفا الى درعا ١٦١ كيلو مترًا . وبين المدينة ومكة تصل السكة الى شاطيء البحر الاحمر عند رابغ فتصير رابغ مرفأ يوصل منها الى مكة جنوبًا والى المدينة شمالاً ولا

تزيد نفقات مد السكة الى مكة وجدة على مليون وربع مليون من الجنيهات اذا عمل فيها الجنود كما عملوا في السكة الى المدينة

والبلاد بعد مكة شرقاً وجنوباً بلاد الخير والمير فلا بدَّ من مد سكك الحديد فيها مع الزمن لاستثمار خيراتها فاذا تمَّ لها ذلك واعتمد اهلوها على سعيهم لا على صدقات الحجاج واموال الاوقاف صارت من اغنى بلدان الدولة العثمانية عمراناً

وقد اثنى الذين شاهدوا هذه السكة ورأوا جودة ادواتها وعرفوا قلة نفقاتها على دولة المشير كاظم باشا الذي كان ناظراً للانشاءات وقومندانا للجنود العاملة وعلى سعادة ميسنر باشا رئيس المهندسين الالماني الذي تولى انشاءها الى ان بلغت مدائن صالح عند حدود الحجاز

ولا يخفى ان اكثر دخل السكة سيكون من الحجاج ولذلك لا يظهر نفعها تماماً الاَّ بعد وصولها الى مكة وحينئذٍ يصير منها دخل وافر يزيد على نفقاتها لانهُ اذا فرض عدد الحجاج الذين يأتون بها الى مكة خمسين الفاً فقط ومتوسط اجرة الواحد منهم عشرة جنيهات بلغ دخلها من ذلك نصف مليون من الجنيهات في شهرين من الزمان ويظهر لنا ان الدخل يتضاعف في السنة كلها. ومهما كانت النفقات كثيرة لا تزيد على سبعين او ثمانين في المئة من الدخل فتقوم السكة بنفقاتها وصيانتها ويبقى منها شيءٌ من الربح فوق النفع الكبير الذي تنتفعهُ البلاد منها بزيادة عمارتها. واذا مدَّت الى اقصى اليمن وحضرموت عادت تلك البلاد في ربع قرن الى المنزلة التي كانت فيها لما لُقِّبت بالعربيَّة السعيدة. ولقد احتفل بافتتاح هذه السكة رسميًّا في اول سبتمبر الماضي في المدينة المنورة فقدمها الوفد السلطاني من دمشق وفيهِ كثيرون من مكاتبي الجرائد وبينهم مندوب من قبل المقطم وافتتح الاحتفال مفتي دمشق الشام بالدعاء للاسلام وتلاهُ دولتلو كاظم باشا بخطابة وجيزة شكر بها الجنود لقيامهم بانشاء هذه السكة قياماً يخلد لهم الذكر والفخر في تاريخ الجنود العثمانية واطنب في شكر المهندسين على ما بذلوهُ من الهمَّة وما تحملوهُ من المشاق حتى انجزوا عملهم وتكلَّم بعض الحضور بما ناسب المقام ووقف جواد باشا رئيس الوفد السلطاني وابلغ الجنود شكر الحضرة السلطانية لهم ثم اعلن افتتاح السكة رسميًّا . وكان المهندس الماهر مختار بك حاضراً وهو الذي اتمَّ السكة من مدائن صالح الى المدينة المنورة فحملهُ الجوع هو وجواد باشا على الاكف من شدَّة الاحتفاء بهما وطلبوا من مختار بك ان يقسم لهم على انهُ يتم السكة الى مكة المكرمة فاقسم انهُ يبذل جهدهُ في هذا السبيل